

الفصل الثاني

الخطابة والوصايا في مصر

(١) الخطابة :

كان من الطبيعي أن ينتقل البيان العربي إلى مصر مع الفاتحين ، وأن يكون استخدام هذا البيان بقدر ما تدعو إليه الضرورة أولاً .

وكانت حاجة العرب في أول هذا الفتح شديدة إلى خطابة يثبت بها القائد قلوب جيشه ، ويبعث بها الحمية والإقدام في جنوده ، ويهون بها شأن أعدائهم ، ويذكّرهم بما خرجوا من أجله وهو النصر أو الشهادة .

وكانت الجمعة فرصة مواتية يخطب فيها كل أسبوع ، فيتحدث في الشؤون العامة التي تشغلهم ، فإذا دعت الضرورة إلى خطابة في أي وقت آخر كان القائد أو أحد أعوانه أسرع إليها ، وأقدر عليها ، وكانت استجابة الجند وغيرهم سريعة إليها .

وروى أن المسلمين كانوا في يوم الجمعة قد اجتمعوا للصلاة ، فسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال ، وكان ذلك في أثناء حصار « بابلين » ، فرآهم ريثة القوم ، وحمل إلى قومه في الحصن خبر اجتماعهم ، فلما انتهى عمرو من خطبته نزل عن منصته الساذجة التي كان يخطب عليها ، وأم المسلمين في الصلاة .

وفي هذا دليل على أن خطبة الجمعة كانت تدور حول ما يشغل المسلمين من أمرهم ، وأهم ما كان يشغلهم يومئذ فتح الحصن ، فكانت خطبة عمرو في التحريض على القتال .

وكان قائد الفتح عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أول خطباء العرب بهذه الديار وقد كان قائداً منصوراً ، وخطيباً فصيحاً ، ورسولاً معروفاً بالكياسة والدهاء .

وكان له في مصر صفة القائد والحاكم والإمام ، فتنوعت خطابه بين الحرب والسياسة والدين ، وكثرت هذه الخطب وتمددت ، ولكن ما بقي منها قليل إذ كان التدوين قليلاً ، وكان حفظ الخطب عسيراً . وإن ما بقي من هذه الخطب يدل دلالة كبيرة على بلاغة قائلها ، ووضوح عقله وصراحته . فتراه في إحدى خطبه يقرر العلاقة بينه وبين أهل البلاد في إيجاز وصراحة .

روى أنه رضي الله عنه خطب مرة على المنبر فقال : « لقد جلست مجلسي هذا في هذا البلد ، وليس لأحد فيه على عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت سبيت » .

وفي صفات عمرو أنه كان فصيحاً فصاحة جعلت سيدنا عمر رضي الله عنه يذكره لما رأى رجلاً يتمتر في كلامه ، فيقول « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد » ، ومعنى ذلك أن الله خلق الفصيح مثل عمرو : والتمتام مثل ذلك الرجل ، وأن عمراً كان معروفاً بهذه الفصاحة حتى كان أقرب من يخطر ببال عمر عندما أراد المقارنة .

ومما يدل على اهتمامه ، واهتمام الناس جميعاً بالقول ، ما ورد عنه بعد فتح الإسكندرية ، فقد أراد أن يرسل معاوية بن حديج إلى الخليفة يبشره ، فطلب منه رسالة مكتوبة : فقال له عمرو : ألسنت امرأاً عربياً تقدر على وصف ما شهدته !

خطبة لعمرو :

وتبدو حكمة فاتح مصر في خطبته التي قالمها في مسجده ، في يوم جمعة^(١) ، بعد أن استقرت الأمور .

قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم أمر الناس بالإحسان

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣ .

والصدقة وطاعة الوالدين : وأمرهم بالقصد ، ونهي عن الإفراط والفضول ، وقد قال فيها :

« يامعشر الناس إياي وخلالاً أربماً ، فإنها تدعو إلى النَّصَب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذل بعد العز : إياي وكثرة الغيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، في غير دَرَكَ ولا نوال . إنه لا بد من فراغ يؤول المرء إليه في توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلاً ، وعن حلال الله وحرامه عادلاً .

يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشَّعْرَى ، وأقلعت السماء : وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى حسن النظر ، كَفَى بكم على بركة الله إلى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، وأرْبَعُوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغامكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتكم من القَبْط خيراً ، وإياكم والسومات والمسولات فإنهن يفسدن الدين ويُقصرنَّ المهم .

حدثني أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بمصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ؛ فإن لكم فيها صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم : وغضوا أبصاركم .

فلا أعلمنَّ ما أتى رجلٌ أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضة قدر ذلك . واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة .

« حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فأتخذوا فيها جنداً كثيراً فكثيراً فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحدٌ منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم » . (١)

هذه الخطبة من أطول الخطب التي حفظت لنا من تاريخ الولاية بمصر ، وأشملها ؛ فقد جمعت بين الموعظة والتحذير ، وبين الآداب العامة والخاصة ، ودعت إلى الراحة بعد النصب ، وإلى متابعة العلم في وقت الفراغ ، وإلى تمتع المرء بالشهوات مع القصد والاعتدال .

ثم دعت المخاطبين إلى أن يذهبوا إلى الريف ، وأن يحسنوا الاستمتاع بخيره ، وأن يرعوا خيلهم حق رعايتها . ثم وصاهم عمرو بالقبط خيراً وذكر وصية النبي صلى الله عليه وسلم فيهم . ثم عاد إلى العناية بالخيول ، وما قاله صلى الله عليه وسلم في جند مصر : وأصرهم بمسد ذلك بالعودة إلى الفسطاط ومع كل منهم ما قدر ، تحفة لعياله .

وإذا كان هناك ما يؤخذ عليها فهو ترك الكلام قبل أن يكتمل ، والحديث في نقطة ثم العودة إليها ، بعد الكلام في مسألة أخرى ، كالوصية بالقبط والحديث عن الخيل . وهذا اضطراب لا يتفق مع ما عرف به عمرو من حضور البديهة ، ولباقة الحديث . وربما كان جمعها من السنة الرواة عند تدوينها سبباً في هذا القلق البادى فيها

فإذا نظرنا إليها مجزأة وجدنا في معانيها ما يباه الطبع العربي ، فكيف ينهى عن كثرة العيال والله هو الرزاق . ثم إن العرب يفخرون بكثرة الولادة . وإذا كانت حاجتهم إليها في الجاهلية شديدة فخأجتهم إليها في زمن الفتوح أشد . لكنها كانت في جملتها دستوراً طيباً لو سار عليه العرب لحفظوا لأنفسهم هيبتها ، وغرسوا في قلوب جيرانهم من القبط محبتها ، وأخذوا للطوارىء عدتها ، وكان من الطبيعي أن تثير أحداث هذه الفترة روح الخطابة في الجانب الآخر أيضاً ، ومن أشهر خطبائهم « قيرس » المقوقس بطريق المذهب الملكاني ومبعوث الإمبراطور . ومن أشهر خطبه خطبة ألقاها في كنيسة « القيصرين » ، وقد أقيمت فيها صلاة التحية بمناسبة عودة هذا البطريق من القسطنطينية يوم الاحتفال بعيد الصليب . وفي حديث بتلر^(١) عن قيرس « إنه رب البيان والبلاغة » وكان موضوع خطبته تذكيراً للناس بجهاد هرقل في سبيل الصليب حتى استرده من الفرس وأقامه في بيت المقدس .

ويرى بتلر في هذه الإشارة إلى بيت المقدس غرضاً خفياً ، وهو تذكير السامعين بأن بيت المقدس قد صار الآن في يد المسلمين ، يريد بذلك أن يوهن قلوبهم والمسلمون على أبواب الإسكندرية .

وهناك خطيب آخر من رجال الدين الأقباط وهو البطريق بنيامين الذي ذهب لمقابلة عمرو بعد فتح الإسكندرية فخطب بين يديه « خطبة جليلة » ، وكان عذب المنطق في تؤدة ورزانة ، ولاشك أن عمراً لم يفهم منها حرفاً واحداً كما يقول بتلر ، ولكنه عندما عرف ما يقصده ، وفهم مرامييه ، أحسن تلقيها وقبولها ، وجعله أميراً على قومه . ولاشك أن خطبة بنيامين قد ترجمت له فمرف منها ما يقصده^(٢) .

(٢) ص ٣٨٤ المصدر نفسه .

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٧٢

الصلح بين عمرو والمقوقس:

خرج المقوقس ليلا من الحصن ، والاسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو جماعة ، كان منهم أسقف بابليون ، فلقبهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم ، فقالوا : « إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عسبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجلا منكم نسمع من كلامهم ، فلعلمه أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تنشأكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه ، ولعلمكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجلا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء » .

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، إذ أبيض لهم أن يسيروا في العسكر ويروا ما فيه ، ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين . (١)

وعاد الرسل وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١

منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشمون في صلاتهم » (١)

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء أحد ، ولئن لم نقتم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيئونا بعد اليوم إذا أمكنهم الأرض وقوا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كي يرسل إليه وفداً للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الحصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عني ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمني » فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا ، فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحداً إلا بفضله وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً مني ... وإني ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ؛ وذلك إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ، يسد بها جوعه ليله ونهاره . وشملة يلتحفها ... لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ! إن هذا وأمثاله قد أخرجهم الله لخراب الأرض» ثم أقبل على عبادة فقال : «أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقاتلتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتكم ما بلغتكم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم علي من ظهورهم عليه إلا لطلبهم للدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدكم من لقي ولا من قاتل ، وأنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضغفكم وقتلكم ... ، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتم ألف دينار ، فتقبضونها ، وتنصرفون إلى بلادكم [قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به]

فقال عبادة :

« يا هذا ، لا تفرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما نخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا تقوى عليهم ، فلمعري ما كان هذا بالذي نخوفنا به ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا ، إذا قدمنا عليه ؛ إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شئ أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنما منكم حينئذ لعلي إحدى الحسينين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الحصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، والأ يرد به إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . . . فانظر الذي تريد ، فليس بيننا وبينك

خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ؛ بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا .

جرت هذه المفاوضة بين العرب وعلى رأسهم عبادة ، وبين الروم وعلى رأسهم المقوقس ، وقد كان طابع هذه المفاوضة أدبياً سياسياً دينياً من جانب العرب ، تتجلى فيه صراحة الحق ووضوح البيان وقوة التمييز ، كما تتجلى فيه قوة الإيمان ، واليقين بالنصر ، والثقة فيما وعد الله به ، والرغبة فيما عنده من عاجل الثواب وآجل النعيم . ولا أدري كيف خوفهم المقوقس بكثرة العدد ثم عرض عليهم مالا لينصرفوا ألم يكن يعلم مواقفهم في الشام ، وكيف يخاف من سواد عبادة وما جاءه إلامفاوضاً ، وما شأنه برياسة وفد المسلمين ، ربما كان ذلك كله فرصة استطاع فيها عبادة وزجاله أن يقدموا للمقوقس صورة من المساواة والإخاء مع اختلاف اللون ، وأن يبينوا له ما في الإسلام من مثل عالية في معاملة العدو والصديق . أما دستورهم الذي ثبتوا عليه فهو دستور الإسلام : واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

ومن أحسن ما يعجبك في هذه المفاوضة لباقة هذا البدوي الأسود وهو يرد على الرومي الأبيض . فقد حسب المقوقس أنه ينفذ إلى شجاعة العرب إذ يذكر لهم كثرة العدد ، وحسب أنه يفريهم بالمال فيصرفهم عما قصدوا إليه ، فكان رد عبادة على هذا التخويف والإغراء رداً صريحاً بعبارة عن المخادعة والمداورة وملزماً له وللمقوقس إذ يقول له : « أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم فلعمري ما كان هذا بالذي تخوفنا به » . ثم يبين له أن ذلك ادعى للإقدام على الروم فإن هزمهم العرب كثرت الغنيمة ، وإن ماتوا في سبيل الله ففي رحمته ورضوانه خير الجزاء ، وتلك أحب الخصلتين إليهم ، ويمثل هذا الإيمان ثبت في نفس المقوقس أن هؤلاء لو استقبلوا الجبال لأزالوها .

وقد كان العرب عند حسن ظنه فأزالوا ملك الروم وثبتوا أركان الإسلام في البلاد .

توات على هذه البلاد أحداث بعد عمرو بن العاص ، فقد عزله عنها عثمان رضى الله عنه ، وثارت فيها الفتن ، ونشطت الخطابة في هذه الفتن ، ثم قتل عثمان بيد المصريين كما يقال ، وأرسل على كرم الله وجهه والياً من قبله هو قيس بن سعد بن عبادة . فلما بلغ مصر صعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين قريء على أهل مصر^(١) . وقد ذكر في هذا الكتاب فضل الإسلام والرسول الكريم ، وأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قاما بأمر الإسلام بعد الرسول وعملا بالكتاب والسنة ، « ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم تقوموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فأستهدى الله عز وجل بالهدى ، إلا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وأخبرهم أنه بعث إليهم قيس بن سعد أميراً . وختم الكتاب بتاريخه صفر سنة ٣٦ هـ .

ثم إن قيس بن سعد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال^(٢) :

« الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . قوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » . فقام الناس وبايعوا واستقامت له الأمور زمناً حتى

(١) ص ٤٢٥ تاريخ الإسلام « التجار » ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩٧

(٢) تاريخ الإسلام ص ٤٢٤ - ٤٢٧ .

أوقع معاوية به عند علي فمزله . وتحركت جيوش معاوية بعد ذلك إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص فاستولى عليها وظل بها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

خطبة عتبة :

ثم وليها عتبة بن أبي سفيان من قبل أخيه معاوية سنة ٤٣ هـ . وكان عهده على قصره كثير الخطب ، وهو أكثر من روى له التاريخ خطباً في ولاية مصر ، وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد^(١) له ست خطب . يصرح في خمس منها بأنها كانت في مصر ولأهل مصر ، ويتحدث في السادسة حديث الوالي القادر إلى الرعية العاصية ، ولم نسمع بأنه ولي ولاية أخرى غير مصر . وهذه هي نصوصها كما أوردها ابن عبد ربه ، مع خلاف في الترتيب :

١ — خطبة عتبة بن أبي سفيان :

بلغه عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم فقال^(٢) بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يولينى الله نسكه ! إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطه ، وأصفحكم — بعد القدرة — عن حقه ؛ نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السنة ، فأطأكم الله وطأة لا رمق معها ، حتى تنسكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

(١) ج ٢ من ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٢) ص ٣٨٩ العقد الفريد ج ٢ .

٢ — وخطبة لعتبة :

قدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر: إن قبلك قوماً يطعنون على الولاية، ويعيبون السلف، فخطبهم فقال (١) :

يا أهل مصر؛ خفّ على ألسنتكم صدع الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأنتم تأتون، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها: ولم ينفعه ثقلها، وأيم الله، لا أدأويكم بالسيف ما صلحتم على السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة، ولا أبطىء عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وإياكم وقال ويقول، قبل أن يقال: فعل ويفعل! وكونوا خير قوس سهماً، بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب، ولا بعده عتاب.

٣ — وخطبة لعتبة بن أبي سفيان :

سعد القصير قال: وجه عتبة بن أبي سفيان، ابن أخت أبي الأعور السلمي إلى مصر فتموه الخراج، فقدم عليه عتبة فقام خطيباً فقال (٢) :

يا أهل مصر، قد كنتم تمتدرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم، فقد وليكم من يقول ويفعل، ويفعل ويقول، فإن رددتم ترادكم بيده، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه، ثم رجا في الآخر ما أمل في الأول. إن البيعة متتابعة، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل. فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عقدت عليها قلوبنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز، ومن حذر كمن بشر.

قال: فنادوه: سمماً وطاعة، فناداهم عدلاً عدلاً.

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١، الولاية والقضاء ص ٣٥، النجوم الزاهرة ج ١

٤ — وخطبة لعتبة :

العتبي ، قال سعد القصير : احتبست عنا كتب معاوية بن أبي سفيان حين أرجف أهل مصر بموته ، ثم قدم علينا كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر والكتاب في يده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل مصر قد طالت مُعَاتِبَتَنَا يَا كُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَظُبَاتِ السِّيُوفِ ، حَتَّى صرْنَا شَجِيئِي فِي لَهَا كُمْ مَا تَسِيغُهُ حُلُوقِكُمْ ، وَأَقْدَاءُ فِي أَعْيُنِكُمْ مَا تَطْرَفُ عَلَيْهَا جَفُونِكُمْ ، أَلْحِينَ اشْتَدَّتْ عَمْرِي الْحَقُّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرَحْتَ عَقْدَ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلَا ، أَرْجَفْتُمْ بِالْخَلِيفَةِ ، وَأَرَدْتُمْ تَهْوِينَ الْخِلَافَةِ ، وَخَضْتُمْ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ . وَأَقْدَمَ عَهْدَكُمْ بِهِ حَدِيثٌ ، فَأَرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ إِذْ خَسِرْتُمْ دِينَكُمْ . فَهَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَبْرِ السَّارِ عَنْهُ وَالْمَهْدِ الْقَرِيبِ مِنْهُ . وَاعْلَمُوا أَنَّ سُلْطَانَنَا عَلَى أَبْدَانِكُمْ دُونَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْلِحُوا لَنَا مَا ظَهَرَ ، وَنَكَلِكُمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا بَطَنَ ، وَأَظْهِرُوا خَيْرًا وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ شَرًّا ، فَإِنَّكُمْ حَاصِدُونَ مَا أَنْتُمْ زَارِعُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ أَتَوَكَّلُ وَبِهِ أَسْتَعِينُ . ثُمَّ نَزَلَ .

٥ — وخطبة لعتبة بن أبي سفيان في أهل مصر :

يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلت أظافري عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذ أبيتهم إلا الطعن على الولاية ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم لنا بالمعصية ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى (١) .

٦ — خطبة لعتبة بن أبي سفيان :

لما اشتكى شكاه التي مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

(١) في صبح الأعشى ج ١ ص ٢١٦ والأمل ج ١ ص ٢٤٥

يا أهل مصر ، لا غنى عن الرب ، ولا مهرب من ذنب ، إنه قد تقدمت منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم وآتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شفى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم ، سلام من لا ترونه عائداً إليكم .

قال : فلم يمد .

تعليق على هذه الخطبة :

فالخطبة الأولى قد بدأت بالتحذير من السيف ، ضحّت أن لهذا السيف ثأراً في رقابهم بما قتلوا عثمان ، وأن الأخذ بهذا الثأر قربة إلى الله يتمناها . ويعود فيذكر أمير المؤمنين وفضله في جمع الشمل ، وأهم من ذلك عنده وعندهم « العطاء » ، ثم يصل إلى ما كان حقه أن يبدأ به وهو ما بلغه عنهم ، ثم يحذر وينهى عن الخروج على الطاعة . وكأنه يلمس ناحية حساسة في قلوبهم إذ يشهد عليهم الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومما قدمت تظهر قوة خطبته من حيث ترتيب معانيها وعلاقتها بالسامعين . فإذا أضيف إلى ذلك جمال الأسلوب ، وحسن التصوير وبديع الزخرف بلا تكلف ولا تعمل زادت قوة . ففيها سجع لا تكلف فيه : وطباق في وحشة الباطل وأنس الحق ، وإحياء الفتن وإماتة السنن ، والإنكار والمعرفة ، ويستخشنون ويستلينون . ويقوى الخطبة ويترك لها آثاراً في النفوس إستناده إلى الحق ، وأنه إن وطئهم وطأة لا رمق معها فذلك « لله » .

وليس من العقول أن يحلل السامع كل هذه تحليلاً دراسياً ، ويفعل ما نفعله نحن : ولكن هذه الآثار تسرى إلى نفسه على هذا النحو الذى قدمته فترك فعلها

في قرارتها ، وتصل به إلى الإذعان رغبا ورهبا ، وهذا هو سر قوتها .
والخطبة الثانية : أقرب إلى اللين من السابقة ، وفيها تنديد قبل التهديد ،
تهديد مشوب بروح العدل ، فهو لن يبدأ بالشدة ، ولن يلجأ إليها ما استقاموا
على سبيل الهدى : ولن يتأخر عن أداء الحق إلى من يلزم حدود الله ، ولعله يقصد بما
أمرهم الله به طاعة أولى الأمر المطلوبة في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا
الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »^(١) ، وتشبيهم بالحار يحمل أسفارا تشبيهه
غامض ، وإن فصله بعد ذلك ، والمراد به أن علمهم بالحق والباطل لم ينفعهم ، وهي
في جملتها أضعف من الخطبة الأولى تركيبا .

أما الخطبة الثالثة فلها ظرف خاص جاء به الكندي إذ يقول إن عتبة بعد
إقامته في الولاية أشهراً ، « وفد على أخيه من أشرف أهل مصر ، واستخلف
على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث بن مسعود بنت أمه أخت أبي الأعور السلمي ،
وكانت فيه شدة على أهل مصر ، فكرهوا ولايته وامتنعوا منها ، فبلغ ذلك عتبة
فرجع إلى مصر » .

وفي رواية : « فكتب إلى عتبة ، فقدمها فدخل المسجد وقرأ القرآن فحمد الله
وأثنى عليه » وقال الخطبة وفيها المعاني المكررة في الخطبتين السابقتين تقريبا ،
فهي تهديد مشوب بالترغيب في الطاعة ، وكأنما كانت سياسته معهم قوله تعالى :
« وإن تنهوا فهو خير لكم ، وإن تمودوا نُعَدُّ »^(٢) .

وكانت عاقبة الخطبة خيراً ، فقد نادوه من جنبات المسجد سماً سماً ، فناداهم
عدلاً عدلاً .

أما الرابعة ، وهي خاصة بما أرجفوا به من مرض أخيه وموته ، فظاهر فيها .

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) سورة الأقال آية ١٩ .

السخط على طول عصيانهم ، وعدم إيمانهم بحق الخلافة القدس ، وفيها إشاعة روح اليأس في نفوسهم ، ورغبة ملحة في أن يستريح من ثوراتهم وأراجيفهم ، وإن أضرموا شراً ، فلا شأن له بالضمير .

وروح الخطبة الخامسة تهديد ووعيد وسباب وشم . وختامها دعوة إلى الطاعة ووعد بالثوبة عليها إن حدثت . وهي كالأولى في زخرفها وزينتها وبخاصة الطباق في « ظهور وبطون » والبخل والجود ، ثم حسن التقسيم ، واتساق الفواصل وقوة النغم .

وكل خطبة من هذه الخطب الخمس مثال واضح لعتبة ، وإذا كان هناك ما تجتمع فيه من الصفات فهو دورانها حول التحذير والإنذار بالعذاب الشديد ، والدعوة إلى الطاعة ليجزيهم خيراً بخير ، والإكبار لحق الخلافة وبيان فضلها ، وفي أسلوبه قوة ، وفي عباراته رنين ، وفي ألفاظه انسجام ، وفي زخرف جملة بُعد عن التكلف .

أما خطبته التي لم يعد بعدها إلى المنبر ، فهي خطبة التوبة والندم ، وهي خطبة النفس التي تحس بما قدمت ، وتخشى ما هي مقدمة عليه ، ففيها معنى الحسرة على ما فرط في جنب الله ، وعلى ما يحتمل من ظلمه لعباد الله ، ولكنه واسع الرجاء في المغفرة .

وهذه كلها خطب سياسية ، طابعها الشدة والتحذير والوعيد ، لأنها كانت في عهد تكوين الدولة وتأسيس الملك الأموي ، والناس قريبو عهد بثورة ، ولكنها تنسم بسماة معاوية أخيه ، من اختلاط الوعد بالوعيد ، ومزج اللين بالشدة ، والإغراء بالمغو والجزاء .

ولا يفرقها عن غيرها من خطب هذا العهد في قوة الأسلوب وحسن التصوير إلا أنها مصرية الموطن ، ولو قيلت في العراق أو الشام لما اختلف إلا المخاطبون ،

وهذا يؤيد ما نكرره من أن أدب هذه اليهود أدب عربي الصبغة ، صادف أن قيل في أرض مصر فنسب إلى هذه الديار واتَّصل بأدبها .

كلمة عامة عن الخطابة :

وكان عتبة آخر الخطباء الذين حفظ لهم الأدب خطباً من ولاية مصر ، ولكن الخطابة لم تمت بموته ، فدواعيها ظلت موجودة ، وولى أمر الناس رجال ذوو لسن وفصاحة ، ولكن النصوص التي تؤيد هذا القول غائبة ، وإن كانت أدلتها شاهدة فن الأحداث الهامة التي حدثت بمصر ثورة محمد بن أبي حذيفة على عتبة بن عامر ، وإخراجه من الفسطاط ، والدعوة إلى خلع عمان . ومثل هذه الثورة على عمان لا يمكن أن تثور بلا مثير ، ومن أهم وسائل الإثارة أن يخطب الساخطون ، بالطمع على عمان ، وبيان ما يأخذونه عليه ؛ وكانت لابن أبي حذيفة طريقة ماكرة في التفرير بالناس ، فقد كان يكتب الكتب على أسنة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون الشمس بوجوههم لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، وأن يرسلوا رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وأمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر في الكتب ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس للقائهم ، كأنه يتلقى رسل أزواج النبي عليه السلام ، فإذا لقوهم قالوا : لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد ، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير ، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي ، ثم يقوم القارىء بالكتاب فيقول : إنا لنشكوا إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام . . . ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر ، وينفر الناس بما قرئ عليهم (١) .

وبعث إليهم عثمان بسعد بن أبي وقاص يعطيهم ما سألوا ، فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطبهم ، ثم قال : ألا إن الكذاب - كذا وكذا - قد بعث إليكم سعد بن مالك ليُقلِ جماعتكم ، ويشتمت كلمتكم ، ويوقع التخاذل فيكم ، فانفروا إليه . فخرج إليه منهم مائة أو نحوها ، فلقوه بمرحلة بني سعد وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوه عليه ، وشجّوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد راحلا من حيث جاء (١) .

هذه مرة أشير فيها إلى المنبر والخطبة في ثورة ابن أبي حذيفة ، ولا بد أن المنبر والخطبة كانا وسيلتهم لإيقاظ الفتنة وإشعالها .

وكيف يمر النزاع بين علي ومعاوية بلا خطب ، وقد كان لكل منهما أنصار بمصر ؟ وكيف يمر ما كان بين ابن الزبير وبني أمية بلا خطب ، وقد كثرت مثيله في الحجاز والعراق والشام !

ونسمع مرة أخرى بالخطابة في عهد عمر بن عبد العزيز (٢) ، فقد طلب أن يدلوه على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح يوليه صلاحها ، فدلوه على أيوب بن شرحبيل ، فكتب إليه بولايته ، وأمر البريد أن تكون موافاته يوم الجمعة ، ففعل . فراح أيوب إلى المسجد فركع قريبا من المنبر : فلما أذن المؤذن صعد أيوب المنبر ، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة وانصرفوا .

وهناك موقف ثور فيه العاطمة وتنطلق الألسنة ، كان المنبر أظهر وسائل البيان فيه ؛ فإنه لما قتل زيد بن علي زين العابدين رضي الله عنه قدم أبو الحكم بن أبي الأبيض العباسي إلى مصر سنة ١٢٢ خطيباً رأسه ، واجتمع الناس إليه في المسجد الجامع ، ولعله رثاه وبكاه ، واستنمّص الناس للقيام بثورة علي قاتليه ، وبين لهم عيوبهم وسيئاتهم ، ولكن نص خطبته أو شيء منها ليس مذكورا (٣) .

وقد يشير الراوى إلى هيئة الخطيب ، ويسترعى انتباهه ملبسه وهندامه ، فيذكر ذلك ولا يذكر خطبته ، قالوا ، كان والى مصر سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان ، وكانت له ربطة مثنية يلبسها ويصلى فيها ، فإذا كان يوم الجمعة احتزم بها على قباء أبيض ، وتقلد السيف ، ثم يصعد المنبر فيخطب^(١) .

وقد يكون المنبر سلم ضراعة ودعاء : روى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس فى إمارة هشام بن عبد الملك ؛ قال بكر بن مضر فرأيتُه رقى المنبر ، واستقبل الناس بوجهه يخطب ، ودعا ، ثم حول ظهره إلى الناس ، واستقبل القبلة يدعو . وحول رداءه ودعا الله ، ثم حول وجهه إلى الناس ، ثم نزل فصلى ركعتين^(٢) .

ولا بد أنه كان يدعو بالمأثور فى الاستسقاء ، يسأل الله أن ينزل الغيث عمياً ، وأن يجعله حول الناس والدور لا عليهم ، وأن يجعله كثيراً الخ .

وفى عهد مروان بن محمد كان ثابت بن نعيم ممن خالف عليه ، وقدم مصر ومعه نفر من اليمانية ، نخطبوا فى مسجد مصر ، ودعوا الناس إلى خلع مروان . فموضوع الخطبة ظاهر ، وهى خطبة سياسية بلا شك^(٣) .

ولما ولى حوثره بن سهيل الباهلى مصر سنة ١٢٨ ، أرسل الخليفة كتاباً بشأنه يقول فيه : قد بعثت إليكم رجلاً أعرابياً بدوياً فصيح اللسان . فاجمعوا له رجلاً فيه مثل فضاله « لعلها خصاله » يسدده فى القضاء ، ويصوبه فى النظر .

فأجمع الناس كلهم على الليث بن سعد وفيهم معلماه يزيد بن أبى حبيب وعمرو ابن الحارث ، وجمع الجند إلى المسجد فخطبهم الحوثره بشعر بليغ^(٤) ومنه :

دعوت أبى ليلى إلى الصلح كى يبو
دعانى لشبِّ الحرب بينى وبينه
برأى أصيل أو يرد إلى حلم
فقلت له مهلا هـلم إلى السلم

(٢) ص ٨٢

(٤) ص ٨٨

(١) الولاة والقضاة ص ٨٢

(٣) ص ٨٥

ولما وليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، من قبل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ ، أمر الناس بأخذ النار في الكور ، ولم تكن قبله ، وإنما كانت ولاية الكور يخطبون على العصي إلى جانب القبلة (١) .

فهذا الاهتمام بالأشياء المتصلة بالخطابة كرجالها ومنابرها وموضوعاتها يدل على وجود هذه الخطابة ، ومن البديهي أن تكون موجودة ، ولكن النص الأدبي الذي نحتكم إليه عند ما نريد أن نحكم على قوتها أو ضعفها ، أو اتجاهاتها العامة والخاصة ، أو تنوعها ، أو غير ذلك من صفاتها ، ليس بين أيدينا .

والظاهر مما تقدم أنها كانت قوية ، وكانت متنوعة ، فكان منها السياسي كخطبة أيوب بن شرحبيل ، ومنها الديني كخطبة حفص بن الوليد ، ومنها الثوري كخطبة ثابت بن نعيم ، ومنه الهادي كخطبة الحوثة .

أما الخطب الحربية فكان لها موضعها في أول الفتح ، وفي عهد النزاع بين علي ومعاوية ، وعند هجوم مروان على جند ابن الزبير بمصر ، وفي عهد زحف العباسيين عليها سنة ١٣٢ هـ .

وقد تشمل الخطبة أكثر من موضوع ، كخطبة عمرو المتقدمة (٢) .

وعند كتب التاريخ من أخبار الفتن والثورات والأحداث إلى قيام العباسيين ما يجعل المؤرخ للخطابة يرجع وجودها وقوتها بسبب هذه الدواعي كاضطراب الأمر على بني أمية ، وهرب مروان بن محمد إلى مصر ، وقدم جيوش المسودة وراءه .

فقتضى هذه الثورات والفتن والأحداث أن يكون للخطابة شأنها لقلة شأن الكتابة عندئذ ، وعدم غنائها في مثل هذه الظروف ، وعدم غناء الشعر في مناقشة

(١) الولاية والقضاة ص ٩٣ .

(٢) أنظر ص ٢٠ من هذا الكتاب .

آراء ، أو بيان حق ، أو دعوة إلى نصره ، أو ما شابه ذلك . ولكنها كانت أقل عدداً ورجالاً منها في العراق والشام والحجاز .

وما حفظه التاريخ من هذه الخطب قليل نادر ، وليس هناك نص كامل لخطبة من هذه الخطب . وأسباب قلة المروي من الخطابة العربية تلخص فيما يلي :

١ — كانت بيئة الفصاحة والبيان في جزيرة العرب مهد الفصحى ، والشام والعراق مهاجرها في عهد بني أمية ، فخرج في هذه البلاد مشاهير الشعراء ، كما ظهر فيها مشاهير الخطباء من الخلفاء ، كماوية ، وعبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام ، ومن فصحاء الولاة كزياد والحجاج وخالد القسري ، ومن زعماء الغاضيين علي بن أمية ، كالحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، وزعماء الخوارج كنافع بن الأزرق ، وقطري بن الفُجاءة ، وأبي حمزة .

٢ — جد من الحوادث والفتن في تلك البلاد ما جعل الخطابة تشتعل مع هذه الثورات المشتعلة ، وكان بنو أمية في شغل بأمر ولاية العهد ، ولكل منهم هوى في ابنه بدلا من أخيه أو ابن عمه مثلا ، ويبدأ ذلك من عهد معاوية . فتشغل الخطابة في بيعة يزيد طويلا . وابن الزبير يفض لهذه البيعة وتسنع الفرصة لخروجه بعد معاوية ، ويستولى على أكثر البلاد الإسلامية ، وتشغل الخطابة مؤيدة ومعارضة ، وبخاصة في الحجاز والعراق .

ويفضب الشيعة لما يصيبهم من محن ، فتثور ثوراتهم ، وتعلو منابرهم . ويخرج الخوارج ، ويشغلون بني أمية ، ويكادون يذهبون بملكها ، فيكثر فيهم أعيان الخطباء ، وتشغل الدولة بهم أكثر مما تشغل بغيرهم .

ولا ينال آل البيت على ضيمهم ، فكانوا كلما أصيبوا في ثورة نهضوا الأخرى ؛ وكان البيان من أقوى وسائلهم لنشر دعوتهم ، وبخاصة في بلاد المشرق ، فهضت هناك خطابة مثيرة ، ولكنها كانت تحاول أن تكون منطقية أيضا . وفي هذه

البلاد الشرقية ، ظهر دعاة بني العباس من الفرس ، وعلت أصواتهم كما لمت سيوفهم .

٣ — كان للبيان منزلته عند الخلفاء ، وكان منزلة من مزايا الولاية . فإذا ظهر وال من ولائهم بحسن الإدارة ومعالجة الفتن مثل الحجاج ، كانت الخطابة من مزايه أيضا ، وكانت الحاجة إلى هذا النوع شديدة في العراق لافي مصر ، كما كانت ولاية العراق جزاء وفاقا لإخلاص هؤلاء الولاية وجهودهم ، إذ كانت أهم ولاية في الدولة من حيث الأعباء الملقاة على عاتق واليها ، ومن حيث المنزلة العالية التي لها .

٤ — ثم إن الرواة الذين يتحملون الخطب وينقلونها كانوا كثيرين في العراق والحجاز والشام ، حيث يكثر الأدب وتروج سوقه عند الأمراء والولاية والأعيان . فرووا ما كان حولهم من هذا الأدب القوي خطابة وشعراً .

٥ — وتدوين التاريخ الأدبي فيما بعد كان له أثر في إهمال الأدب المصري ، فقد عني بالشام لأنها مركز الخلافة ، وبالحجاز لأنها موئل العربية ومنبعها ، وبالعراق لأنها مركز حركة أدبية وثورات سياسية أنبتت أدبا عظيما .

في عهد العباسيين :

قامت دولة بني العباس على أقباض الدولة الأموية ، واتخذت البيان سلاحاً واعتمد رجالها على البلاغة — بين ما اعتمدوا عليه — ليكسبوا عطف الناس وقلوبهم ، وليثيروا النفوس على أعدائهم حتى إذا مكن الله لهم في الأرض ولوا من أمور المسلمين ما كان يليه الأمويون ، وصارت لهم الإمامة وخطبة الجمعة وقيادة الجيوش ، فقويت دواعي الخطابة في أيامهم وظهر فيهم خطباء مصاقع كما ظهر من ولائهم ورجال دولتهم من يذكروهم تاريخ الأدب كلما عرض لهذا النوع من البيان . وتوحي ظروف مصر في القرن الثاني وأوائل الثالث بنشاط الخطابة وقوتها

بسبب الأحداث والفتن الكثيرة . وتؤيدنا كتب التاريخ في الإشارة إلى هذه الخطب ورجالها ، لكننا نفتقر إلى نصوص أدبية يجعلها عمادنا في الحديث عن الخطابة المصرية زمن العباسيين .

ومن خطباء الولاية موسى بن كعب^(١) ، والى المنصور عليها سنة ١٤١ ، ويؤثر عنه أنه كان يقول في خطبته : « من كان يريد جارية فارهة أو غلاماً فارهاً فليرفع يديه إلى الله » وقال في خطبته « هذا أخوكم عبد الغفار الأزدي كان معكم منذ ثلاث سنوات ثم مات . فلا تغفلوا عما نزل به » .

ولاشي في خطبته يشير إلى مصر ، ولكنه خطبها في مصر وعلى منابرها . وهو في هذا الأمر المأثور عنه يوجه الناس إلى باب الكريم ، ويأمرهم أن يدعوا الله لغناهم ، ولعله كان ضيق الصدر برغبات المحتاجين . وعبارة الكندي تدل على أنه كان يكرر النص الأول ، أما النص الثاني فهو أقرب إلى الوعظ . وكان المنبر للطعن في الأعداء وشفاء النفس من المنافسين :

يروى أن محمد بن بجير كان والياً على الشرطة لمحمد بن الأشعث والى مصر سنة ١٤١ وكان في نفسه ثورة على أبي عون والى مصر قبل ذلك . فكان ابن بجير يصعد المنبر ويقول : النخاس ، الكذاب^(٢) .

ووليها للمنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب^(٣) (سنة ١٤٤ - ١٥٢) وفي ولايته ظهرت دعوة بني حسن بمصر ، وتكلم بها الناس ، وباع كثير منهم لعل بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وهو أول علوي قدم مصر ، وإن دعوة كهذه

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٥ .

كان موسى من نقباء بني العباس وقد اتهم بأنه من المسودة في أيام الأمويين ، فأمر به أسد ابن عبد الله البجلي فأجلم بلجام ، ثم كسرت أسنانه ، فلما صار الأمر إلى بني هاشم أمالوا على موسى الدنيا ، فكان يقول : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز ، ولما جاء الخبز ذهبت الأسنان .

(٢) الولاية والقضاء ص ١٠٩ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١ .

لتحتاج إلى بيان وخطابة ، ومن طبيعة اجتماعاتها أن يكون فيها مناقشة وجدل ،
وحجج تؤيد بعض الآراء وأخرى تدحضها وهكذا .

وقدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن في سنة ١٤٥ ،
فنصبوه في المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره ، ومنهم شبة بن عقال^(١) .
وربما أغرب بعض الخطباء في ملابسهم فروى الثورخ ذلك وأهل الخطبة ،
فقد روى أن عكرمة بن قحزم كان على شرطة أبي عون فخطب وعليه رداء نارنجي ،
وكان ابن بجير على شرطة ابن الأشعب فخطب في قيص وساج . وأول من خطب
في السواد عبد بن الله عبد الرحمن بن معاوية بن حديج^(٢) .

ومن التلميحات السريعة عن الخطابة ما روى أن أبا يحيى الصدفي^(٣) قال :
« رأيت موسى بن علي بن رباح والي مصر لأبي جعفر يخطب على منبر صغير خارج
من القصورة » .

وفي عهد موسى بن مصعب^(٤) ثارت القيسية واليمانية ، وكتبوا أهل مصر
فانفقوا عليه ، وانهزم عنه أصحابه وقتل ، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة
واحدة . وكان موسى هذا ظالماً غاشماً . سممه الليث بن سعد يقرأ في خطبته : « إنا
اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها » فقال الليث : اللهم لا تقه منها .

وقال ابن عفير^(٥) : ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن
صالح (والي الرشيد على مصر سنة ١٨١ - ١٨٢) . وشهادة ابن عفير لها قيمتها ؛
لأنه أديب ومحدث ثقة ، فشهادته مقبولة .

ولما مات موسى الرضا وأنخذل إبراهيم بن المهدي ، كتب المأمون إلى السري

(١) الولاة والقضاة ص ١١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧ . (٣) الولاة والقضاة ص ١١٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٤ . (٥) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

بذلك وبغسل المنابر التي دعى عليها لعلى بن موسى ^(١).

من الطولونيين إلى الفاطميين :

استمرت الخطابة ولكنه لم يعد يذكر عنها شيء إلا ما كانت تشتمل عليه من دعاء للخلفاء ومن يشار إليهم في سلطانهم . وقد يكون ذلك بصيغ خاصة تدون ثم تتلى في كل خطبة .

روى أن الموفق سجن أخاه المعتمد سنة ٢٩٦ وكتب ابن طولون بذلك إلى نائبه في مصر ، ووصف في كتابه بؤس المعتمد وبكائه مما صار إليه حاله ، نخطب الخاطب يوم الجمعة فذكر ما نزل بالمعتمد ، وزاد في خطبته (اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه ^(٢)) .

وكان يدعى على الموفق في مصر ، فلما صالح خمارويه دعى له على المنابر بدلاً من الدعاء عليه .

وانتهى أمر الدولة الطولونية ، وأحرقت القطائع ، ونهبت الفسطاط سنة ٢٩٢ وأطلق من في السجن . وأمر محمد بن سليمان ، الوالي الجديد ، بأن يدعى على المنابر لأمر المؤمنين المكتفى بالله وحده . وهكذا حتى وليها محمد بن طنج ^(٣) وفي سنة ٣٢٧ زيد في لقبه الإخشيد ودعى له بذلك على المنابر .

ثم استبد كافر بأمر البلاد ودعى باسمه على المنابر سنة ٣٥٥ .

وانتهى أمر الطولونيين سنة ٣٥٨ بدخول القائد جوهر فاتحاً باسم المعز لدين الله وخطب له على المنابر ثم جاء المعز نفسه سنة ٣٦٢ هـ .

ولاشك أن الخطابة قد ضعفت في عهد العباسيين ، وكانت بمصر أضعف ، وبخاصة

(١) الولاة والقضاة ص ١٧٠ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٢٦ .

(٣) الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

في القرن الثالث ، وذلك لقيام الكتابة مقامها ، وعدم الاطمئنان إلى الخطابة في
المواقف التي تحتاج إلى الدقة ، ووزن الكلمات ، والحذر من عثرات اللسان ، كالأمر
السياسية . فإذا أضيف إلى ذلك ضعف ولاة الأمور والناس عامة في اللغة ، عرفنا
أن الخطابة قد صار أمرها إلى الضعف ، وأن الكتابة أغنت غناءها ، وصارت
الكتب تعد بعناية وتتلَى من فوق المنابر ؛ ففي خلع الموفق كتب أحمد بن طولون
كتاب الخلع على نسخ ، وأنفذ إلى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر في
جميع الأمصار (١) .

ويقول ابن عبد كان (٢) : لقد أمرني أحمد بن طولون يوماً بإنشاء كتاب
يقرأ على المنبر ، فأنشأته ، ودفعته إلى محبوب ليقراه . وفي رسالة ابن طولون إلى
ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التي يحكمها
كتباً تقرأ على المنابر فيها لعن العباس والبراءة منه يتناقلها آخر عن أول ،
وتنجد في بطون الصحف ، وتحملها الركبان ، ويتحدث بها في الآفاق (٣) .
وفي كتاب ابن طولون هذا ، بيان لفضل الكتابة على الخطابة بأنها أبقى
على الزمن ، وأذيع في الآفاق ، وأدق عند الانتقال من بلد إلى بلد ، أو من جيل
إلى جيل .

ومع هذا فن المسير أن نسلم بفناء الخطابة أو ذهاب رجالها ، وإنما الذي
نعنيه هو قلة دواعيها وضعف الناس في اللغة ضعفاً يقعدهم عن بديهة الخطابة ،

ولكن ورد في سيرة ابن طولون أن محبوب بن رجا كان فصيحاً ، وأنه ذكر في
مجلس ابن عبد كان يوماً فقال عنه : إنه كان بين الفضل ، فصيح اللسان ، وإنه لما

(١) سيرة ابن طولون ص ٢٩٥ .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٢٩٥ (٣) صبح الأعشى ج ٧ ص ٥

تسلم الكتاب المشار إليه قريبا ، وهو الذي كتبه ابن عبدكان ليقرأ على المنابر ، دفعه إلى صاحب دواته ليسلمه إليه في الجامع ، فنسى الغلام وحمل شيئا آخر ، وهو يظن أنه الكتاب ، وركب الأمير إلى الجامع ، وصعد محبوب المنبر ومعه ذلك الشيء الآخر الذي حمله إليه الغلام . فلما نشره محبوب علم أن الغلام أخطأ . فاندفع محبوب ، ومضى يقرأ ، وينشر ما في يده ويطويه ، ليوم من يراه أنه يقرأ الكتاب ، وكانت ألفاظه عذبة حسنة في المعنى الذي كان قصده ، وفطن لذلك ابن عبدكان وحده لأنه صاحب الكتاب الأول^(١) .

ويدل ذلك على أن الخطب قد صارت كتباً تمتد وتتل من فوق المنابر ، وأن الكتاب هم الذين كانوا ينشئونها ، وتدل هذه الحادثة التي ظهرت فيها فصاحة محبوب بن رجا وحسن تصرفه على أن الزمن قد يجود بمن يستطيع القول على البديهة ، والتخلص من المآزق ، والإجادة فوق المنابر . وهذا مثال آخر يدل على أنه كان في زمن ابن طولون قوم من ذوى البديهة الحاضرة ، والبلاغة المواتية ، والحيلة المنجية :

من ذلك أنه راح في يوم جمعة إلى المسجد فلما رقى الخطيب المنبر وخطب ، دعا للمعتمد ولولده ، ونسي أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر مرقة ، فأشار ابن طولون إلى سوار الخادم أن إذا فرغ من صلاته وخرج اضربه خمسمائة سوط ، فتذكر الإمام وهو على المرقة الثانية ، فرجع إلى أعلى المنبر وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد ، « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيَ ولم نَجِدْ لَهُ عَزْماً » اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون . وزاد في الدعاء له ثم نزل عن المنبر . قال سوار : فنظر إلى مولاي وقال لي : اجملها دنائير . ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله جل اسمه على سلامته ، وهنأه الناس بالسلامة^(٢) .

(١) سيرة ابن طولون ص ١٤٧ (٢) سيرة ابن طولون ص ١٥٩ ، وفي خطط المقرئى أن هذا الخطيب كان أبا يعقوب البلخي .

(ب) الوصايا

هي نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد ، والحث على اكتساب المحامد ، والتبصير بحسن السياسة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

والوصايا تلحق بالخطب ، لما يجمع بينهما من مشافهة المخاطبين ، والحرص على إقناعهم في أسلوب قوى محكم ؛ ثم يختلفان فيما عدا ذلك ، فتكون الخطابة لجماعة حاضرة تسمع قول الخطيب ، والوصية لجمع ولو واحد ، وللغائب والشاهد ، وتكون نثراً كما تكون شعراً ، وتكون كتابة وقولاً . وموضوع الخطب أعم من الوصايا ، فهذه لنفع المخاطبين دائماً ، أما الخطب فقد تبعد عن ذلك ، فتكون تهديداً أو رثاء ، أو مدحاً ، أو دعوة إلى مذهب ...

وهذه الوصايا المتنوعة ، تختلف بين الطول والقصر ، ومنها : الوصايا السياسية ، والحربية ، كوصية أبي بكر رضى الله عنه إلى قواده وقد أرسلهم لفتح البلاد^(١) . ومنها الوصايا الفنية كوصية عبد الحميد بن يحيى إلى أهل صناعة الكتابة^(٢) . ومن أحسن وصايا النساء وصية امرأة عوف بن عجم الشيباني لبنتها وقد تزوجت ، وهي التي وصتها فيها بزوجها ، وابتدأتها بقولها : « كوني له أمة يكن لك عبداً^(٣) » .

وقد تكون الوصية شعراً ونثراً كوصية عبد الله بن شداد لابنه ، وقد أراد سفراً^(٤) ، وقد تكون شعراً خالصاً كوصية ابن سعيد المغربي لابنه^(٥) أبي الحسن ومطلما :

(١) ص ٢٥٤ تاريخ الأمم الإسلامية خضرى أول (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٧ (٤) الأمالي ج ٢ ص ٢٠٢

(٥) هو من شعراء القرن السابع توفى سنة ٦٧٣ هـ .

أودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رُحماً في أوبتك

ومن خير هذه الوصايا وأشملها وأجلها كتاب مشهور من طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله ، لما ولاء المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، فكتب إليه أبوه ذلك الكتاب ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه : من الآداب الدينية والخلقية ، والسياسة الشرعية واللوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة .

وهو كتاب شامل ، قيل إنه لما علم المأمون به حرص على أن يذاع على الولاة في جميع الأمصار ، فكتب نسخة منه إلى كل مصر في دولته^(١) .
أما جانبه الأدبي فيمكن في وصفه ، من حيث القوة والوضوح والسهولة ، والاسترسال ، أنه من إنشاء طاهر بن الحسين .

ولا يختص بالوصايا زمان ولا مكان ، فهي شائعة ما احتاج الناس إلى موعظة . وقد حفظ الأدب قليلاً من هذه الوصايا في عهد الولاة بمصر ، ومن أولها وصية قيس بن سعد بن عبادة ، والى مصر لسيدنا علي ، يوصى بها محمد بن أبي بكر ، خلفه في منصبه ، وهذه قصتها :

عزل علي رضي الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، ثم إن قيساً لقي محمد بن أبي بكر فقال له^(٢) :

« إنه لا يمنعني نصحي لك ولأمير المؤمنين عَزُّهُ إياي ، ولقد عزلني من غير وَهْنٍ ولا عَجْزٍ ، فاحفظ عني ما أوصيك به يَدُمُ صلاح حالك ، دع معاويةَ بنَ حُديجٍ ، ومسلمةَ بنَ مُخَلَّدٍ وُبُسْرَ بنَ أَبِي أرطاة ، ومن ضَوَى إليهم ، على ما هم

(١) الكتاب بتمامه في مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٢٧ الولاة والقضاة .

عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا عليك فلا تطلبهم . وانظر هذا الحى من مضر فأنت أولى بهم منى ، فالن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك ؛ وانظر هذا الحى من مدج فدعهم وما غلبوا عليه ، يكفوا عنك شأنهم ، وأزل الناس من بعد على قدر منازلهم ؛ وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك . ولن تفعل ! إنك ، والله ، ما علمت : لتظهر الخيلاء ، وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك . والله موفقك . » .

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، واشتد مع الخوارج فلاقوه بأشد مما أعد لهم ، فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم . وهذه الوصية سياسية يرسم فيها منهجاً واضحاً لخلفه ، كي تستقيم له الأمور . وتجتمع عليه القلوب ، ويسكت عنه الأعداء ، وقد أحسن المقدمة إذ تناسى الظرف الذى هو فيه ، ظرف المزل عن الولاية ، وقدم نصيحته خالصة ، ولكنه ختمها بما يحمل على مخالفتها ، إذ قال لمحمد « ولن تفعل فإنك والله لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك » فكأنه كان يحرضه فى ختامها على رفضها وليس ذلك محموداً فى النصيحة ، فإذا كانت من معزول إلى خلفه كانت موضع شك واتهام ، وكان الميل إلى الخروج عليها أشد . فكيف يذكر له عيوبه ، ويحتم بها وصيته ؟

وأما مروان فقد جاء مصر فاتحاً ، وانتصر ، وولى ابنه عبد العزيز أمرها ، ثم رجع بعد أن وصاه . ويقول صاحب النجوم الزاهرة « ثم خرج من مصر بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر »^(١) . ومن هذه الوصايا التى حفظها التاريخ عن مروان بن الحكم ثلاث وصايا نعرضها هنا :

أولها وصية سياسية تبدو فيها مهارة مروان ؛ إذ أوصى ابنه أن يستغل عواطف الناس وطبائعهم ، وأن يرضى فيهم غرورهم ، ليكونوا له عوناً على أموره . وذلك أنه لما انتصر مروان بمصر على جيوش ابن الزبير ، وقبل صالح بن جندب شروط الصلح ، كتب مروان بيده كتاباً لأهل مصر ، ثم ولى عبد العزيز عليها ، فقال له : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلاد ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال له : « يا بني ، عمّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصّتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك ، وخولك في منزلك ^(١) »

أوصاه بالجدود واشتراء الرقاب ، وتلك خطة طالما أفلحت في حمل الناس على الطاعة ، وأوصاه أن يكون طلق الوجه كي يخلصوا له المحبة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل انقلب سياسياً يريد أن يفرق بين الناس كي لا يجتمعوا عليه ؛ وأخص ما أراه في هذه النصيحة أن قائلها يعرف نواحي الضعف في النفس الإنسانية ، ويريد لابنه أن يستغلها لمنفعته . ومنها حب المال وإرضاء ما في النفس من غرور ؛ وهذه الوصية نتيجة تجارب طويلة في الأعمال التي كان يليها معاوية ، ووحى بصيرة نافذة تعرف ما يصلح للعرب من سياسة .

والثانية وصية دينية . خلقية . يهتم فيها بالشورى ، قال عبد العزيز بن مروان : أوصاني مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال ^(١) : « أوصيك بتقوى الله في سرّ أمرك وعلايتك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً ، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك ، » إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .

(١) الولاة والقضاة ص ٤٧ .

وأوصيك ألا تمجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحي الذي يأتيه ؛ قال الله عز وجل « وشاورهم في الأمر » .

إيها وصية أب صالح يرغب ربه ، ويرعى أوامره ، ويدرك أن ابنه في عمله هذا ذو سلطان مستمد من الدين ، فهو أولى الناس باتباع أوامره ، ومن أول هذه الأوامر أداء الصلاة في وقتها .

والوفاء بالوعد صفة حميدة يدعو إليها الدين ، ويدعو إليها الخلق العربي ، والشورى لها مزاياها ، والدين يأمر بها ويمدحها .
وتراه يقوى هذه الوصية بآيات القرآن الكريم . فهي في جملتها وصية صالحة من خليفة المسلمين ، إلى من يلي أمراً من أمور المسلمين .

ولما انصرف « مروان بن الحكم » من مصر إلى الشام ولي « عبد العزيز » ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكماً ولا توصه » ، أي بني ؛ انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق عُذْوَةٌ ، فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةٌ فلا تؤخرهم إلى غدوة ، وأعظم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعييتك منك كذب [فإن تعلقوا عليك بكذبة ^(١)] لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعييتك فلا تؤاخذ به عند سؤره الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، مُطْفَأُ الجمره ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ، ذا أناة ، ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك ،

(١) زيادة يتم بها المعنى وهي غير موجودة في الأصل .

ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم . على غير استرسال ولا انقباض . أقول قولي هذا واستخلف الله عليك^(١) .

هذه الوصية الثالثة أطول وصايا مروان وأشمها ، فهي سياسية : توصي بالعمال خيراً ، لما لهم من فضل في إدارة البلاد ، وأول ما يجب لهم أن ينالوا جزاءهم في وقته ، وأن يأخذوا حقهم في مواعده ، فإنهم إذا شبت بطونهم عفت نفوسهم ، ودامت طاعتهم .

وهي خفية توصي بالصدق في معاملة الرعية ، واستشارة أهل الشورى من الجلساء والعلماء . وإذا كانت هذه منزلتهم فعلى الوالى أن يحسن اختيارهم من أهل الحسب والدين والمروءة ، وأن يعرف منازلهم مع احتفاظه بوقاره . أما الدعوة إلى الحكمة في وقت الهدوء والسكينة فذلك لأن سورة الفضب قد تحمل على مجاوزة الحد . والأخذ بأكثر من الذنب ، وتلك الدعوة مصدرها أوامر الدين وروحه .

ولا أستطيع أن أقول بشمول هذه الوصايا لكل ما يجب أن يوصى به . وإنما هي آراء رأها « مروان » صالحة لمستقبل ابنه في ولايته ، فصاغها هذه الصياغة الفنية الجميلة .

وقد جعل « الكندى » الوصية الثانية عند خروج مروان من مصر عائداً إلى الشام ، وجعل « ابن عبد ربه » الوصية الثالثة عند انصراف « مروان » من مصر كذلك . فهما وصيتان لا وصية واحدة ، لذا بينهما من اختلاف في النصائح والأسلوب ؛ وكأن أباه أدرك حاجته إلى كثرة الوصايا فكررهما .

هذه هي كل ما وجدت من عهد بنى أمية بمصر ، ثم يسكت الأدب طويلاً بعد ذلك حتى يأتي عهد ابن طولون فيحفظ مؤرخو دولته من وصايا السياسية الأيوبية شيئاً كوصايا مروان ، وهذه وصية دعت إليها رغبته في دوام الألفة بين أولاده :
وصى احمد بن طولون ولده العباس حينما رضى عليه ، وأطلقه من قيده ، وخلع

عليه ، وقلده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشامات والثغور . وقال له ^(١) :
« أنا أوصيك يا بني بتقوى الله عز وجل ، ومكافأة أخيك ، والإمساك عن
الاستطالة عليه ، بزيادة سنك على سنه ، فلا تترك لمن يقصدك من العراق
مدخلا بينكما ، يتأتى منه لكما ، ولا تسمع ممن يطلب صلاح نفسه بفساد ما بينكما ،
ولا تضمرن لأخيك غير ما تظهره ، فان القلوب مجنونة . واعلم أن جوار أخيك
لك أصلح من جوار غيره ، ولا تضمر له خلافا فتبسطا ما بينكما ، ويجد عدوكا بذلك
سبباً إلى هلاككما . وقد تقدمت بإزاحة علل رجالك ، فاحرص أن يكون خروجك
إلى عملك قبل وفاتي ، فان الراغب عنك كثير ، أكثر من المائل إليك ، وأخاف
أن تتلوم على الطمع في موضعي وتترث ، فتذهب نفسك ! بصرك الله رشداً
ووقفك ، ووقاك ما أخافه عليك ، وأحاذره فيك ، بمَنه » .

وأرى في هذه الوصية حرصاً من الوالد على هدوء الحال ، وإصلاح ما بين
الإخوة ، وتنبهها إلى خطر الساعين بالفساد .

ودعته إلى الوصية الثانية رغبة ملححة في دوام الملك في بيته ، وعماد ذلك رضا
الرعية ، بلين الجانب وحسن المعاملة ، ثم بحسن تدبير المال ، والإنفاق منه عند
الضرورة فقط : وهذه هي : ^(٢)

وصى « أحمد بن طولون » ولده « أبا الجيش خمارويه » قبل وفاته فقال له :
يا بني لا تعدلن عن مشورتي عليك ، فلن تجد أبداً أنصح لك مني ، قد خلفت
دخلك بلدك يزيد على ما ينوبك بجيشك وسائر مؤونتك ، فلا تطلقن فيه يداً بجور ،
فيختل أمرك بخراجه ، ولا تقبل نصيحة من ينتصح لك ، بما يؤول إلى خراب بلدك ،
والإجحاف بمعامليك فيه ، فانه عدو مبين من حيث لا تعلم ، فانيذنه عنك ، ولا تقربه
منك . وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب ، والأمن من المخاوف :

(١) سيرة ابن طولون ص ٣٤٢ (٢) سيرة ابن طولون ص ٣٣٩

ولم أكن أمنهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك على نفسي ، بمنى لهم
لين جانبي ، والأمن من مخافتى ، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم ، ويبادروا
إلى طاعتك ، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك ، فى صغير أمرك وكبيره ،
ولم آثرتك عدواً أخافه عليك ، واعلم يا بنى أن كل سرف يسئول إلى اختلال وتلف .
ولا تمد يدك إلى المال المحزون عند خير الخادم ، واجعله ذخيرة لملكك ، وأقمه
مقام جارحة من جوارحك ، لا تبذلها إلا فى شدة تخاف معها فسأدرجسدك ،
أو عندما تقدر باخراجها صلاح سأدرجسدك » — وكان خير الخادم هذا خادم التوكل —
ثم قال له : « واسلك يا بنى سبيلى ، واقتفِ آثارى فى سائر من خلفت ، يأنسوا
بناحيتك ، ويحسبوا طاعتك ، ولا يميلوا إلى عدو يخالفك ، ولا تقبلن مقال
السماعة فيما تقوى به سُوقهم عندك ، فكل شر وسوء يسئول إلى اضمحلال
وزوال ، ويهلك فى ذلك من سلكه » .

وإذا كان مروان سخياً فى وصيته ، فقد كان ابن طولون حذراً ممسكاً ، يذكر
المال شحيحاً به ، داعياً إلى الحرص عليه ، والجانب الأدبى فى وصايا مروان لابنه
أقوى منه عند ابن طولون ، وسهولة الموعظة وصراحتها واضحة عند مروان ، أما
ابن طولون فقد شاب وصيته أحياناً شئ ، من غرابة المعنى ، وغرابة تعليقه ، إذ يقول
فى وصيته لعمارويه : « ولم أكن أمنهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك
على نفسي بمنى لهم لين جانبي »

وإذا كان مروان قد رأى فى وصيته الأولى أن يعهم ابنه باحسانه ليكونوا
جميعاً بنى أبيه ؛ فقد كان ابن طولون يرى اللين مؤدياً إلى نفس الغاية ، أما المال فلا
يدعو إلى بذله إلا عندما تشتد الأمور ، ولا يكون هناك مفر من بذله ، وكان
مروان أصح رأياً ، وأعمق إدراكاً للنفوس .